معجم مصطلحات القضاء العرفي عند العرب

باسم عبد الحميد حمودي

- ينبغي الاشارة الى ان هذا المعجم ينشر متسلسلاً خالياً من الاحالات والهوامش على ان تظهر في كتاب يصدر عن (المدى) في زمن لاحق

حرف الكاف
الكبارة: وهو مبلغ يدفع (بين ١٠ جنيهات مصرية إلى قيمة دية كاملة) لرد اعتبار المجني عليه الذي قبل بالتسوية السلمية دون إصرار على القصاص، وذلك في الاعتداءات المعنوية أو الجسمية، ويتفاوت مقدار الكبارة تبعاً لحجم النزاع والمكانة الاجتماعية للمجني عليه.
الكبارة: التمثيل أمام القضاء اليدوي.
الكتبة: أوراق مدون فيها علاقات عوائل أو عشائر معينة بالنسبة لدفع الديات وقضايا الفصول، وتتم المكاتبة بأن تأتي العائلة أو الفخذ الراغب إلى رئيس الحمولة (العشيرة الكبرى) بورقة تعهد تسلمها له فتبقى مستنداً عنده (ويوقع الطرفان على وثيقة أخرى أكثر وضوحاً).
وفي منطقة الجبايش (جزء من منطقة الأهوار العراقية) تؤدي الكتبة (المكاتبة) إلى انضمام الجماعات المتكاتبة مع بعضها لتكون حمولة واحدة مثلما انضمت حمايل بني أسد إلى بعضها مكونة حمولة (عشيرة) جديدة منسلخة عن الآخرين في وقت كانت الكتبة فيه في قرية الشرش (قرب مدينة القرنة) لا تتعدى المشاركة في دفع التعويضات الناتجة عن قضايا الفصول.
الكليط: هو رئيس فخذ من أفخاذ العشيرة وله خبرة في إدارتها ويكون كريماً كيساً ذا أخلاق حميدة.
الكدة: عملية سير الجاهة (مجموعة الوساطة أو هيئة الترضية) إلى مضارب عشيرة المجني عليه بقصد إجراء الصلح.
الكوامة: (بالكاف الفارسية) وهي إرسال علم أو خبر إلى عشيرة القاتل بأنهم قد أصبحوا أعداء العشيرة الأخرى وأنهم أصبحوا مطالبين بالثأر من قبلها —وهي من قاوم— يقاوم —مقاومة.

حرف اللام
اللايحة: جروح الوجه ويسمونها هوايا الوجه.
اللف: الانتماء إلى العشيرة عن طريق الولاء لها.
اللوح: عقد تسجل فيه مجموعة من الأعراف والقوانين التي وضعتها القبائل قصد تدبير شؤونها الداخلية والحفاظ على أمنها الخارجي، وقد استمر العمل بالألواح حتى بداية القرن العشرين حيث يدعى العرف أو القانون أو الديوان أو الشروط، وفي الأطلس الكبير إلى سجلماسة يدعى تيعقدين، وفي الأطلس المتوسط أزون والملاحظ إن كتاب الألواح لا يتقيدون بالتحديد الجغرافي للأسماء.

ستوديو ثقافة شعبية

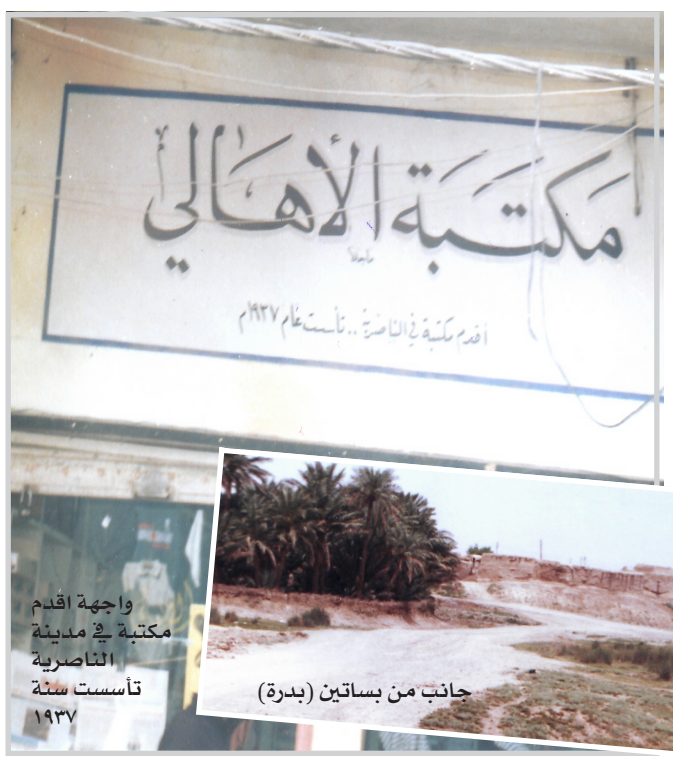

واجهة اقدم مكتبة في مدينة الناصرية تأسست سنة ١٩٣٧

جانب من بساتين (بدرة)

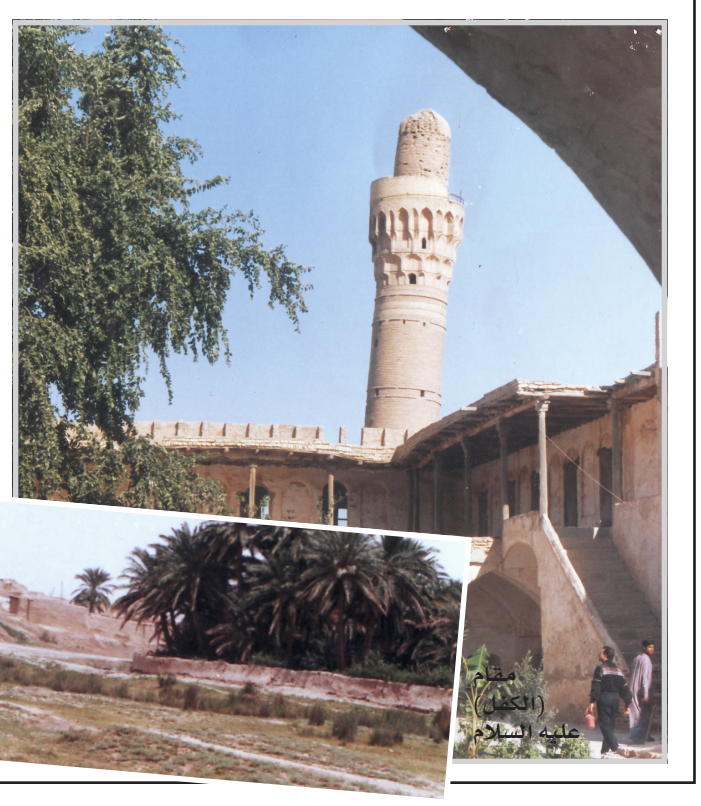
مقام (الكفل) عليه السلام

حكاية

صاحبة الحمار

قاسم مطر التميمي

إذا كان ثمةَ شبهٍ في الخِلقة بين الجاحظ عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥) عن عمر شارف على التسعين و بين جحظة أحمد بن جعفر (ت: ٣٢٤) عن عمر قارب القرن ، فليس ثمة شبه بينهما في السجايا و الأخلاق . فذاك رجل تبوأ —برغم دمامته —منزلة عالية في العلم و الأدب و الفكر، فصنف الكتب الكثيرة و الرسائل العديدة التي خلدت ذكره . وهذا رجل يقول الشعر و يتكسب به، صاحب فنون و نوادر و منادمة حتى قيل أنه أظرف ظرفاء عصره، غير أنه دميم الخلقة ، نتن الرائحة ، سيئ الخلق ، رث المظهر ، جاحظ العينين ، يعاقر الخمر و يدمن السهر و الطرب و المجون . و يقال أن ابن المعتز هو أول من أسماه (جحظة) أما ابن الرومي فكان يترحم لمنادميه الذين تحملوا ((ألم العيون للذة الآذان)) .
و بعد أن ينفض مجلسهم قبيل الفجر و يذهب كلٌ إلى داره يأوي جحظة إلى فراشه ولا يستيقظ إلا عند الظهر .وقبل أن يخرج ليجلس عند عتبة داره ليأنس بالناس الذين يستخدمون السكة في غدوهم وروحاتهم ، يحتسي بضعة كؤوس من الخمر ليصفو مزاجه و ليتخلص من مطارق الصداع التي ينعكس صدى صوتها على قحفة رأسه، فيتداوى بالتي كانت هي الداء .
وجلس كعادته ذات يوم عند عتبة داره يتفرس في وجوه الناس و ينظر الناس إلى هيئته بتقزز و اشمئزاز اللهم إلا أولئك الذين اعتادوا رؤيته بمثل هذا الوقت من النهار فأنهم كثيراً ما يتحاشون النظر إليه .
ولم يمر على جلوسه وقت طويل حتى أقبلت إمرأة متنقبة راكبة على حمار و بين يديها وصائف كالغزلان يحففن بها و يمسكن عنان حمارها وقد سطعت السكة من روائح طيبها، فبقي جحظة مبهوتاً متحيراً من كمال خلقها ونور ما بدا له من وجهها ، فلما جاوزته وقفت و تأملته لحظات ثم سلمت فرد عليها السلام و قام على قدميه إجلالا لها . فقالت : ((يا فتى هل في منزلك محتمل للقايلة في هذا اليوم ؟)) ، قال : ((يا سيدتي على الرحب والسعة و لك الفضل و المنة .)) فما كذبت أن ثنت رجلها و نزلت و أمرت جواريها فدخلن بالحمار إلى الدهليز ثم دخلت . فلما استقر بها المجلس مدت يدها إلى نقابها فحلته .
و فكر جحظة ، وهو يحسب أن جميع ما يراه نوم لا يقظة و شك لا يقين. فقال في نفسه ؛ هذه جارية مغنية بلغها عني صوت من صنعتي فأرادت أن تأخذه عني .
قال يخاطبها : ((يا سيدتي . أتأذنين لي أن أقدم لك طعاماً وشراباً و أغنيك ما لعله بلغك من متخير أصواتي؟)) . قالت : ((ما على ذلك فوت ، و لكن قم الآن و شأنك فاقضِ حاجتك ثم تصير إلى ما تريد .)) .
فقام إليها وقد أخذه الروع مهابةً لها ، فلما فرغ مما لم يكن يأمله و لا تسمو همته إليه . قال : ((يا سيدتي هل لك في الطعام و أدعو بالعود فأغنيك ما قصدت له ؟)) . قالت : ((عسى أن يكون هذا في يوم غير هذا.)) ومدت يدها إلى قناعها فاعتجرت به و نهضت مسرعة و بقي جحظة متحيراً . فلما صارت إلى الدهليز لتركب ، قال متوسلاً : ((سألتك بنعمة الله عليك ما خبرك ؟)) . قالت : ((لو تركت المسألة كان أحب إليك و أعود عليك .)) قال : ((لا بد لي من علم حالك .)) . قالت : ((أما إذا أبيت فسأصدقك ؟ لي ابن عم هو بعلي يخالفني إلى جويرية لي مشوهة المنظر ، فأقسمت بالأيمان المحرجة أن أطوف بغداد حتى أبذل نفسي لأقبح من أرى وجهاً و أوحش صورة . فأنا أطوف من الفجر إلى هذه الساعة فما رأيت بها أقبح منك ، فبررت قسمي و إن عاد إلى مثل فعله عدت إليك إن لم أجد أوحش منك !))
ثم تركته وذهبت .
وفي المساء إجتمع شمل الندماء وكان أقربهم إليه مجلساً علي بن سعيد الكاتب فحدثه وسرد على مسامعه الحكاية ثم قال ؛ ما ظننت يا أبا الحسن أن إفراط القبح لينتفع به حتى حصل الذي حصل ! .
فقال له نديمه : ((هون عليك فإن القرد إنما يقع السرور به و الضحك منه لتجاوزه في قبح الصورة ! !)) .

من تراثنا المجيد..

رجال من بغداد

رفعت مرهون الصفار

كان البغداديون القدامى يلتزمون بمعايير الاخلاق الفاضلة والامانة وبراءة الذمة ويأنفون من الدنايا ويبتعدون عنها. ويردون من يقترفها نصحاً وارشاداً، والا فتكون هناك قطيعة مع امثال هؤلاء لئلا تسري عدواهم الى البسطاء من الناس..
كما انهم كانوا يعلمون اولادهم محاسن الاخلاق ويبعثون فيهم القيم الانسانية النبيلة، ويرجون لهم السداد في ما يعملون مع متابعتهم وتوجيههم.
وفي ما يلي نبذة من سير هؤلاء الناس الكرام.
١- ما كان الحاج حسن (وهو من اهالي نجد ومن سكنة محلة المهدية) (معتمد المدرسة الجعفرية) يأتي ليلاً الى المدرسة لتنظيم السجلات ونقل الدرجات وغيرها من الاعمال. وفي احدى الليالي وبينما كان الحاج حسن منهمكاً في العمل سمع حركة في السطح فخاف معتقداً ان احد اللصوص جاء ليسرق المدرسة وبينما هو في حيرة وارتباك ناداه الشخص الذي يسير على السطح وهو مبتل (حجي.. حجي.. لا تخاف انا السيد كاظم شكاره / وكان عمره آنذاك يقارب السبعين سنة/ جئت لتنظيف المرازيب من الاوساخ واعشاش الطيور بعد ان شاهدت المطر وذلك خوفاً من ان يقف الماء وينضح السطح).
٢- كان جاسم الملة حسن تاجراً كبيراً ومن مرتادي قهوة محمد فرج السعيدي الواقعة في سوق الساعجية وقد اصابه الذهول اواخر ايامه.
في احد الايام وعند خروجه من المقهى دفع الى محمد فرج اربع ليرات ذهبية بدلاً من اجرة المقهى (عشرة فلوس) ولما قال له محمد فرج ان سعر الجلوس في المقهى عشرة فلوس اجاب جاسم ان هذه هي عشرة فلوس.
فما كان من محمد فرج السعيدي الا ان يأخذ الليرات الاربع الذهبية ويذهب بها الى عواد بن جاسم الملة حسن ويخبره بالقصة محذراً من الا تتكرر امثال هذه مع غيره.
٣- جابر عثرات الكرام (الحاج داوود ابو التمن) كان من المعروف عنه وقد سيق شباب العراق الى جبهات القتال (سفر برلنك) وبقيت عوائلهم بدون معين لذا اقام الحاج داود ابو التمن بعمل اكياس من التمن توزع على النساء ليلاً من دون معرفة العوائل المستفيدة دفعاً للاحراج والمتاعب الجانبية.
وقد أيد الاستاذ علي بازركان هذه المبادرة في كتابه (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية)
وقال: لا انسى مجلسه في مسجده وقد وضع اكوام المجيديات امامه والمجاهدين حوله وهو يسألهم عن عدد من يعيلونهم ليدفع لهم نفقات اكسائهم ومعيشتهم.
ان هذه الصفات الحميدة التي كان يتصف بها البغداديون.. لا بد من ان تكون دروسا لنا وللاخرين في هذه الفترة التي ضاعت فيها القيم وزيفت فيها معالم المكرمات والسجايا الحميدة... لان فيها من العبر والمزايا السامية ما يجعلنا ننظر اليها بعين الاجلال والتقدير. وهي المفاهيم السائدة بين اولئك الاجداد الكرام نضيفها الى تاريخنا القديم الحافل بامثال هؤلاء لتكون معلماً يهتدي به من يبتغي الهداية كما لاتخفى على الضالين المنحرفين عساهم ان يأخذوا في يوم من الايام العبر من هذا التراث الخالد وليغرفوا من هذا المنهل الطيب وليربوا انفسهم واولادهم على قيم تراثنا المجيد.

عشقها ليون الافريقي

تينبكتو جوهرة الصحراء الافريقية

اسمها الصحيح تينبكتو وليس تمبكتو، عاصمة جمهورية مالي، وهي من أهم العواصم الأسلامية في شمال أفريقيا، وجوهرة الصحراء المتربعة على الرمال، وهي بوابة أقصى المغرب الأسلامي، وملتقى القوافل البرية للقادمين من النيجر وليبيا، وكذلك تجار الملح القادمين من (تودني)، وقد أنجبت العديد من الفقهاء والعلماء،وأزدهرت فيها الحركة الثقافية، وتعاقب عليها الغزاة وآخرهم المستعمر الفرنسي الذى قاومته قبائل المنطقة العرب الطوارق بقيادة المجاهد (محمد علي الأنصاري) الملقب(أنقونا) الذي شهد الفرنسيون أنفسهم على بسالته في المقاومة وتسميتها بتين بكتو منسوبة إلى : بكتو وهى عجوز مشهورة لدى العرب الطوارق ،ثم يأتى الصنغاي بعدهم، وبعض قبائل السود الأخرى .

واحة تينبكتو هي حاضنة الاسلام في الصحراء الكبرى ومنارة العلم فيها ومجمع العلماء وهي من أشهر المدن العربية الاسلامية خاصة منذ القرن الثالث عشر إلى أن دخلها المستعمر الفرنسي في اوائل القرن التاسع عشر وأحتلها وأطفأ شعلتها، وسكان تينبكتو كلهم مسلمون وأشهر القبائل التي تقطن المنطقة قبيلة الأنصار التي ظهر فيها المجاهد الشهير محمد علي الملقب انقونا، الذي قاوم المستعمر الفرنسي عند اجتياحه المنطقة إلى أن قام الفرنسيون باغتياله عام ١٨٩٧، وقبيلة السنغاي، والبرابيش.

تينبكتو جوهرة الصحراء

بعد مائة عام من العزلة عاشتها تينبكتو عروس الصحراء ومهد حضارة الغرب الإفريقي، وبعد أن طويت في صفحات الماضي، ها هي تحاول جاهدة أن تنفض عن نفسها غبار الماضي لتعلن عن عودتها، ولتواصل عطاءها الحضاري الذي بدأته قبل ألف سنة مضت.

ليون الأفريقي

حينما قصد حسن الوزان الشهير بـ (ليون الأفريقي) مدينة تينبكتو في بدايات القرن السادس عشر الميلادي، كانت تلك ولا شك هي الفترة الذهبية التي جعلت منها أسطورة الصحراء وجوهرتة، حتى عادت مضرب الأمثال، ومثار الخيال عند الرحالة الأوروبيين، الذين اقترنت في أدبياتهم بأقصى مكان في الأرض وأبعده. واليوم لا تكاد تجد أوروبيا واحدا، لا يعرف تلك الجوهرة التي تغوص وسط رمال الصحراء الأزوادية شمالي جمهورية مالي، فحسن الوزان نفسه الذي افتتن بها يقول عنها: إنها هي المنطقة التي تفجرت فيها صبابته، حيث أعرس بها وكانت له بها منادمات، لم ينسه إياها بلاط البابا في روما، ولا رحلاته إلى الأستانة أو القاهرة، فكما يقول: إن الوصول إليها هو سر أسرارها، فقد كانت ملتقى القوافل الذي يربط أهل إفريقيا غربا وشرقا، وكان الوصول بحد ذاته يعني نوعا من المغامرة، حيث لا تربطها بأي من عواصم التجارة المشهورة آية محطات لمن يؤمها.

عاصمة للعلم

ولا شك في أن أكثر ما تزدهر به تينبكتو في ذلك الوقت هو التجارة فقط أكثر من أي شيء آخر، ولكن الأهمية ازدادت يوما بعد يوم، حينما صارت إلى جانب تلك الخاصية عاصمة للعلم، فصار فيها ذلك التزاوج الذي جعلها في مصاف كبريات مدن العصر في ذلك الوقت كقاهرة المعز، والأستانة، وفاس وغيرها من المدن. ويعتقد البعض أن ذلك النشاط تضاعف كثيرا بعد سقوط آخر معاقل الأندلس وهو مملكة غرناطة، وقد ظلت تينبكتو مع ذلك التميز صامدة أمام كل الأهوال التي تعصف بها دائما على يد أهلها خاصة. وقد كتب للوزان الذي رأى عزها أن يرى كذلك جزءا من نكباتها. ترقد تينبكتو بمحاذاة نهر النيجر الذي يلتف بها من جهة الجنوب، وعدا تاريخها المزوج بكثير من المآسي فإنها اليوم مدرجة في سلم الماضي السحيق، إذ لم يتبق منها سوى تاريخها المجيد، ولعل آخر فتراتها الذهبية كانت في عهد السعديين، وتحديدا في عهد منصور الذهبي، ورغم محاولات الانتفاضة التي تحاول تينبكتو القيام بها بين فترة وأخرى، فإنها تظل كالعجوز التي سميت عليها (تين —بتكو) تقتات من تاريخها، وتساير الزمن بما تبقى لها من ذكريات الماضي، وقد أعيد اكتشاف تينبكتو مرات الواحدة تلو الأخرى بفضل المستكشفين الأوربيين، أمثال البريطاني "الميجور غوردون لينغ" الذي استمات حتى دفع حياته ثمنا لاستكشاف معشوقته تلك. وكذلك المستكشف الفرنسي "رينيه كايبه" الذي سكنها حتى توفي بها. ولعل الجمال كله يتمثل في تلك الكثبان الرائعة التي تحيط تينبكتو ويشقها النهر الذي يحيط بها أحد أجمل المناظر الأسطورية في الصحراء.

حكاية التأسيس

وعود على بدء، فقد تأسست " تين بكتو "وليست " تينبكتو" وهو الخطأ الشائع، في أوائل القرن الخامس الهجري الموافق لسنة ١٠٨٠ ميلادية، ولذلك (أي تأسيسها) قصة، وهي أن الطوارق كانوا يعيشون أثناء موسم الأمطار في ربوع صحرائهم ويعودون في فترات الجفاف إلى المناطق الخصبة حول نهر النيجر الشهير، وهو ما دفعهم إلى اختيار موقع تينبكتو حذاء ثنية نهر النيجر، كمكان مناسب لتخزين احتياطي الغذاء. والموقع كانت تسكنه امرأة عجوز من الطوارق من قبيلة "ايمقشرن" اسمها بتكو، وعليها سمى المكان بـ"تين" بمعنى (مكان) "بتكو". وقد ظلت تينبكتو في البداية عبارة عن مخيم للطوارق، ثم تحولت مع مرور الأيام إلى قرية، وظلت تنمو باضطراد إلى أن تحولت بفضل موقعها من ملتقى للطرق التجارية إلى مدينة يؤمها آلاف التجار والزوار؛ ووصل ذلك أوجه في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث انتزعت وبكل جدارة مكانة مدن كبيرة في ذلك العصر مثل "ولاتة" في موريتانيا و "برنو" في غانا، اللتين كانتا من أهم أسواق التجارة في الغرب الأفريقي آنذاك.

إنفاق سخي

وقد بدأت تينبكتو بلفت الأنظار إليها كمركز إشعاع علمي بعد رجوع ملك المندينغ "منسا موسى" من رحلة الحج الشهيرة التي قام بها عام ١٣٢٥ م ووزع في طريقه إليها آلافاً مؤلفة من سبائك الذهب، خاصة في القاهرة. مما تسبب في هبوط أسعار الذهب، وقد أمر السلطان الشاعر الغرناطي الملقب بالسهيلي بتصميم جامع كبير والأشراف عليه (هو جامع تينبتكو القائم إلى يومنا هذا)، وكانت تلك النواة الأولى لبناء صرح علمي في تينبتكو حيث صار مع مرور الأيام مركزا للعلم، خاصة تبرع امرأة من سركولو (إحدى القبائل المالية) ببناء جامع آخر فيما بعد، وقد ازدهر العلم مع تقاطر الطلبة من شمال وغرب أفريقيا على تينبتكو، وقد ساعد على ذلك الإنفاق السخي الذي قام به التجار على دور العلم فكان أروع تزاوج بين المال والمعرفة في عروس الصحراء، إذ وصل عدد المدارس في ذلك الوقت ١٨٠ مدرسة، تضم أكثر من ٢٥,٠٠٠ طالب، كما وصل مستوى التعليم في تينبتكو ذلك الوقت إلى المستوى نفسه الذي وصل إليه في قرطبة وتلمسان، والقاهرة —كما يؤكد "شاربون ". وقد ظلت حركة العلم تلك في نمو وازدهار، وكان عمرها واستمرارها مقرونين بازدهار التجارة التي تمولها.

حرير وتوابل

كانت أكثر البضائع الرائجة في تينبكتو ذلك العصر من أفخر بضائع الدنيا فكان التجار يقايضون فيها الحرير والتوابل والنحاس الأحمر، ببضائع مملكة مالي الفاخرة التي اشتهر سلاطينها بملوك الذهب، حيث كانت تينبكتو من أكثر مدن أفريقيا التي تصدر الألماس والذهب والعاج وريش النعام، إضافة إلى ملح صحراء "أزواد" الذي اشتهرت قوافله حتى عصرنا هذا، وكانت مثار إعجاب الأوروبيين الذين صوروا عن رحلة "أزلاي" شمال تينبكتو أجمل الأفلام، وهي حقا من أعجب الرحلات، حيث كان تجار الملح ينطلقون منها في قوافل تضم عادة أكثر من ٣٠٠ جمل أصيل يقطعون مسافة شهر في الذهاب والإياب في صحراء "أزواد" الملتهبة، التي لا ماء ولا عشب ولا ظل فيها ثم يعودون منها بألواح الملح الصخري البلوري من " تودني " إنها فعلاً أرض الأساطير والأحلام كما وصفها أحدهم. واستطرادا في وصف تلك الفيافي التي هي جزء من حضارة منطقة تينبتكو فلنقرأ ما كتبه"جان كلود كلو تشكوف "من مجلة " جون إريك "حيث يصف الصحراء "الأزوادية " بأنها كانت من الأزمنة السحيقة عبارة عن منطقة خالية من البشر، وظل موقعها على الخرائط خاليا من أي إشارة يقول: إن الطوارق أنفسهم كانوا يتجنبونها ويخشون أن يصيبهم ما أصاب تلك (القافلة المفقودة) التي كانت تضم حوالي ١٠٠ شخص وضلت طريقها، وعندما أيقنوا الضياع وهبوا واحداً منهم كل ما بحوزتهم. ولكنها رغم تلك القوة التي تجعل الضائع يفقد الأمل في الحياة تظل سحرا يستهوي عشاق المغامرة، فيصفونها بأنها صحراء ساحرة بل ملعونة! وينقل كلوتشكوف أن الصحراء في الأساطير كانت مقرا لملكة الساحرات، كما تذكر القصص الأسطورية فإن تلك (الملكة) سحرت عددا من تجار الطوارق ووجهائهم. ولاشك في أن الشبه هنا كبير مع مملكة " أنتينيا " الشهيرة التي استوحى منها الروائي"بييربينوا" روايته المعروفة، غير أن الأسطورة دائما تنطوي على جزء من الحقيقة. وكما أسلفت فإنه رغم حالة الاحتضار، كما سيأتي، فإن أسطورة تينبكتو إلى يومنا هذا مرتبطة بالذهنية الغربية، ولعل أكبر أعداد السياح الذين يتجهون إليها هم من ألمانيا واليابان وأمريكا وكندا.

مدينة عجيبة

ولعل أكثرهم ولعا بها الأمريكان الذين يأتي أحدهم خصيصا لختم جواز سفره في تينبكتو! ورغم تواضع هذه المدينة اليوم، فإن معظم وكالات السفر تقدمها دائماً بـ(المدينة العجيبة) أو (جوهرة الصحراء)، وهي - لمن لا يعرف- متوأمة مع مدينة (سانت) الفرنسية مدينة المستكشف الفرنسي "روني كاياي" أول فرنسي دخل تينبكتو وكتب عنها ووصفها وصفاً دقيقاً في كتاباته عام ١٨٢٨ م. ولعل الخيال الأوروبي الواسع هو الذي جعل هذا الاهتمام يتضاعف رغم حالة الاحتضار التي تشهدها هذه المدينة، فرغم أن هذه الاكتشافات بدأت واستمرت بعد أفول شمس تينبكتو، إلا أن كتابات أصحابها تتحدث دائماً عن سحر غامض، وانبهار دائم بمعشوقتهم تلك! ولكن يبدو أن الوضع اليوم يتلخص في المثل القائل (أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) إلا أنه رغم الأمل الذي يحدو الكثيرين في أن يتحسن الوضع، فإن شيئا لا يلمح في الأفق في الوقت الراهن في الأقل، خاصة في غياب أية مبادرات جادة في إنقاذ تلك الجوهرة الغامضة، التي يحاول أهلها تأخير نهاية العالم بوضع حصيرة سميكة لسد الثغرة التي حدثت في باب متآكل قديم في ساحة الجامع الكبير، الذي يعنى فتحه نهاية العالم حسب اعتقاد بعض الأهالي. ولا يبدو أيضا أن الفاورق (الرجل الأسطوري) الذي يوجد تمثاله في وسط المدينة والذي يعتقد بعض أهل المدينة أنه يحلق كل ليلة فوق منازلهم ليحميها، قد بقي له ما يقوم بحمايته، فحتى أكثر كنوز المدينة وأغلاها اليوم والمتمثل في مركز أحمد بابا (العالم التينبكتي الشهير) تعب القائمون عليه من تكرار النداءات للعالم لإنقاذ مخطوطاته التي تشهد حالة احتضار مريرة بسبب غياب أي دعم للحفاظ عليها، ولا ريب في أنها خيبة كبيرة تلك التي عاشها العالم الإسلامي في بداية الثمانينيات عندما تم اختيار تينبكتو ضمن عدد من المدن الإسلامية الشهيرة للاحتفال بدخول الألفية الخامسة عشرة للهجرة النبوية فيها، إذ لم تكن المدينة تتوفر على أدنى الإمكانيات التي تساعدها على ذلك.

ظاهرة التصحر

وأهم ما يلاحظه الزائر لهذه المدينة اليوم هو الأثر المدمر لظاهرة التصحر، حيث أتت الرمال على الغطاء النباتي الذي كان يحيط بالمدينة، وردم فرع النهر الذي يبلغ طوله حوالي ٧ كلم والذي يصل المدينة بالمجرى الرئيسي لنهر النيجر الذي كان يسهل نقل البضائع إلى قلب المدينة بواسطة الملاحة النهرية. و بالرغم من استغلال الحكومة المالية للسمعة التاريخية الواسعة للمدينة في جلب السياح الغربيين، إلا أن نصيبها من مشاريع البنية التحتية لا يكاد يذكر، ما أثر على السياحة في المدينة نفسها، هذا فضلا عما نتج عن ذلك من مظاهر الفقر والبؤس، وبالرغم من هذه الصورة القاتمة إلا أن تينبكتو تبدو دائماً شامخة ومصدر اعتزاز ومتعة إذا ما نظرنا إلى واقعها الثقافي، إذ أنها من المناطق القليلة في العالم التي حافظت على ذلك النوع الثقافي الكوزموسي، حيث استطاعت المدينة صهر عدة ثقافات في بوتقة واحدة، لتصنع منها ثقافتها التي قلما تجدها في مكان آخر. فسكان تينبكتو يجيد معظمهم سبع لغات ويعني ذلك أنه يعيشون سبع ثقافات امتزجت عبر تاريخ شعوب المنطقة، وهم: الطوارق، والعرب، والفلان، والبمبارا، والسنغاي، إضافة إلى الفرنسية كلغة رسمية. المهتمون بتينبكتو والمثقفون تحديدا ما فتئوا يطلقون صيحات ونداءات.. وأكثر من مرة حاولوا تأسيس لجان تحت اسم (أنقذوا تينبكتو) أو (جمعية أصدقاء تينبكتو) وغيرها محاولة منهم للفت أنظار العالم لمساعدتهم، وانتشالهم من الاندثار الذي يهددهم. ولا شك أن لموجة الجفاف التي استمرت عقدي السبعينيات والثمانينيات دورا كبيرا في تكريس الفقر والمرض بين سكان تلك المنطقة، ناهيك عن التجارة التي توقفت فيها، خاصة بعد تهجير أهلها وسكانها الأصليين وتحديدا التجار العرب والطوارق الذين فروا من القتل بعد اندلاع الثورة بين حكومة مالي والمقاتلين الطوارق، ومن آخر المآسي والنكبات التي عرفتها تتمثل في أنها بعد أن كانت من أكبر مقابر الغزاة الذين حاولوا السيطرة عليها قرونا عدة، تحولت كذلك اليوم إلى مقبرة لأهلها الذين تم إفناء معظمهم إثر النزاع السياسي الذي اندلع بداية هذا العقد.